حلم . . .

سارت السيارة الصغيرة سريعة خفيفة رفيقة براكبيها ، كأنها تسير على وجه الماء . فاذا اعترض سيرها وسرعتها عارض ، اهتزت فى رعشة ملؤها الحدب على الراكبين ، ثم تجلدت واستمرت فى سيرها ، تقوم بما فرض صاحبها عليها القيام به ، مخلصة جاهدة . ولم تكن تلك الرعشة لتواتيها إلا نادرا . فهى تسير فى طريق ريفية ، ولكنها ممهدة كخير ما يكون التمهيد . فتلك طرق شقت ومهدت فى أرض الحقول الايطالية التى تحيط بمدينة روما ، مهدتها حكومة تهدف إلى العمران قبل كل شئ .

كانت حرارة الجو سائغة لدى الراكبين ، وإن كان الشهر من شهور الصيف ، التى يبتدئ فيها ساكنو روما فى الرحيل عن مدينتهم الجميلة قاصدين المصايف ، ولكن الراكبين كانا من بلد إفريقى ، وقد اعتادا جوا أشد قسوة فى الصيف ، فكان الجو عندئذ لديهما بمثابة الأيام الجميلة فى بلدهما فى أواخر فبراير وشهر مارس .

وكان المنظر الذى يتجلى ويتغير أمام ناظريهما ، عجيباً فى تحوله وتغيره حتى ليبدو حلماً من الأحلام . فهما منذ غادرا شوارع المدينة الضيقة ذات الأرصفة المكتظة بالناس ، ومنذ تركا وراءهما تلك الخرائب الرومانية العظيمة وقطعا أرض شارع الامبراطورية يشرف عليهما من اليمين بناء الكوليزة ، وسارا فى طريق ألبانو ، انقطعا عن عالم الضجيج رويداً رويدا ، وانتقلا إلى أرض منبسط أكثرها ، تبدو فى جوانبها عند الأفق تلال بعيدة قليلة الارتفاع ، زرقاء اللون ، كادت تختلط بالسماء لولا أنها داكنة ، على حين كانت السماء زرقاء صافية يضفى عليها الضوء غلالة ذات بريق . ويزيد فى زرقتها قطع من السحاب ناصعة البياض ، لم تقف ساكنة بليدة ، كما يفعل السحاب فى بعض أيام الصيف حين تكون الرياح ساكنة ؛ بل كانت

على سكون الرياح تتسابق فى السماء الصافية الزرقاء ، وتتخذ اشكالا غريبة مما يزيد فى جمال المنظر ويحدث فيه تأثيراً هو أقرب إلى الأحلام .

كان راكبا السيارة رجلين : أحدهما فى آخر مرحلة الشباب ولم يقدم بعد على الكهولة ، والآخر قطع مرحلتى الشباب والكهولة ، وولج برأسه إلى مرحلة الشيخوخة ، فرأسه أصلع عار من الشعر فوق جبينه ، ومجلل فى جوانبه بشعر أبيض قصير . وكان الأول يقود السيارة وهو صاحبها ، وهو الدليل فى هذه الرحلة ، وكان الثانى لا يعرف إلى أين يذهبان قال الشيخ :

— إلى أين نسير

قال زميله مداعبا متكئا :

— إلى نزهة قصيرة

وابتسم الاثنان ، وسارت السيارة بهما فى الطريق التى رسمها السائق تشق سبيلها بين المناظر المتغيرة فى غير عنف ولا مفاجأة . فالأرض الى حولها ليست جرداء ، بل هى ذات زرع ، تنبت فيها هنا وهناك أشجار باسقة ، ولكنها لاتطغى على الأرض حتى تؤلف غابة أو حرشا ، وهنالك مزارع ولكنها ليست واسعة بحيث تكون على وتيرة واحدة ، وهنالك سهل لايخلو من المرتفعات ، وثمة مرتفعات ولكنها لاتبلغ من الارتفاع حدا يضيق مرمى النظر . غير أن الأرض تغلب عليها حمرة تظهرها فى لون كلون الشفق ، وتحنو على الأرض السماء فى حلتها الزرقاء اللامعة . وعلى حين فجأة لاحت من بعيد فى وسط الأرض الحمراء قطعة من الزرقة اللامعة ، كأنها اقتطعت من السماء وبسطت على الأرض ، فقال صاحب السيارة :

— هذه بحيرة نيمى .

نيمى ! أية تذكارات غريبة احتفظت بها هذه البحيرة ، وكشف عنها الباحثون فى الأزمان الحديثة ! هذه هى سفينة كاملة كان يتخذها أحد براطرة الرومان مسكنا ومتنزها اخرجها الباحثون من أعماق المياه ، وهى الآن ماثلة للعيان على حافة تلك البحيرة الأبدية ، ترجع بعين البصيرة إلى ألفى سنة مضت إلى ذلك الامبراطور الشاب جاليجولا أو الحذاء الصغير ، كما كان يلقبه جيش أبيه تحببا ، ذلك الذى حلف طباريوس الامبراطور الغامض ! وهو

الامبراطور الشاب الذى رحب به الشعب ، وعقد عليه الآمال الكبيرة ، وأخذ يحقق تلك الآمال ، وإذا هو يصاب بمرض يقوم من بعده وحشاً كاسراً فيقتل كل من يقع تحت طائلة ظلمه ، بل يقتل كل من كان جديراً برعايته إذا لم يراع غيرهم من الناس ؛ فقد قتل جميع من أخلصوا له أو أمرهم فقتلوا أنفسهم ، وقتل أهل بيته وزوجته ، بل قتل أمه ، وظل يفتك بمن حوله إلى أن ائتمر به جنده وثاروا عليه وقتلوه للتخلص من طغيانه .

هذه هى السفينة التى كان يقضى فيها الامبراطور الشاب بعض وقته يخلد إلى الراحة . وهل يجد راحة من مرضه الملح ! لقد يشعر المرء فى هذا السكون بالرغبة فى أن يخدع نفسه ، ويعتقد أن الامبراطور الشاب يجد حقيقة شيئاً من الراحة فى هذه السفينة تمخر به فى هذه البحيرة الوادعة وبين هذا السكون الشامل ، وفى هذه الراحة يجد أتباعه وخدامه شيئاً من الدعة ، وفيها يدخل إلى نفسه شئ من الرحمة . ويريد المرء أن يعتقد أنه كان ينسى قسوته ، وأنه كان يرى أن القسوة جزء من أعباء سلطانه فيخلعها حين يخلو إلى خاصته وصحابه وغانياته فى هذه السفينة . ولكن من يدرى ؟ ربما ذاق أجداد أسماك هذه البحيرة طعم اللحم الآدمى فى يوم من الأيام ، وعرفت أسماك تلك الأيام كيف تفرق بين لحم الشيخ ، وبين طراوة لحم الفتاة .

تأمل الزائران مليا هذه السفينة ، ثم سارا إلى المتحف الذى اقيم على حافة البحيرة لأجزاء السفينة ومحتوياتها ، فاذا أشبعا فضولهما من رؤية هذه الآثار عادا إلى السيارة ولوى صاحبها عنانها ، فعادت تسير بهما سيرتها الأولى تنهب الطريق بهما نهبا .

ولم يكونا يتحادثان إلا قليلا ، فكلاهما يقدر لذة الصمت والسكون ، وكلاهما يعرف أن ما يجيش فى خاطره فى أكثر الأحيان يكاد يكون قريباً مما يجيش فى خاطر صديقه .

كان صاحب السيارة قد رأى هذه الأمكنة من قبل ؛ فهى ليست جديدة عليه ، وهو قصصى وكاتب ، شأنه فى ذلك شأن صديقه ، ولكنه لاحظ صديقه ينظر إلى جهة بعيدة عند الأفق فيها أشجار متكاثفة ، تجلل رأس مرتفع عن الأرض ، ورأى على وجهه نظرة جادة كمن يفكر فى شئ . فسأله :

— فيم تفكر ؟ كأنى بك تتجه بالفكر إلى ضحايا جاليجولا ، أو إلى الإمبراطور المجرم نفسه .

فأجاب : كلا ! لقد لاحت لى هذه الأدغال المتكاثفة ، فذكرتنى بشخص آخر قد يكون مجرماً ولكنه يستحق الشفقة كل الشفقة .

الواقع أن منظر هذه الأدغال المتشابكة ذهب به بعيداً إلى تلك الصورة الغريبة التى وصفها جيمس فريزر فى كتابه الخالد عن معبد كان مقاما فى غابة على مقربة من بحيرة نيمى ، وكان كاهنه الأكبر لا يموت فى الغالب إلا قتيلا . ذلك أنه مقدر دائماً أن من يقتل الكاهن الأكبر يحل محله فاذا الكاهن الأكبر بعد أن يرتكب جريمته ويحل محل سلفه لا يستطيع النوم نهارا ، وبالأولى لايستطيعه ليلا ، فهو لايزال مختبئاً بين الأدغال ، فى يده الخنجر خائفا أن يغفى فيغفل عن حماية نفسه ، فيأتيه من يقضى عليه ليحل محله . فما أشقى هذا الكاهن بمركزه !

سارت بهما السيارة فاذا الطريق تؤدى إلى قرية صغيرة كان أهلها فى مرح وسرور وقد ارتدوا خير ثيابهم ، فالفتيان والرجال فى ملابس بسيطة ونظيفة ، والفتيات النضرات فى ثياب بيضاء مزركشة ، وإذا هم فى عيد يحتفلون بموسم فاكهة الفراوله ، وكانوا يسيرون فى موكب نحو الميدان الذى يتوسط القرية . ونزل الصديقان من السيارة ، وسارا فى الموكب مع السائرين يتحدثان إلى هذا وذاك . فلما بلغ الموكب الميدان الذى يتوسط القرية كان العمدة فى انتظاره ، وهو رجل بدين بعض الشئ وخجول ، فتقدم يحيى السائرين فى الموكب ووقعت عيناه على الغريبين ، فتقدم إليهما ، وتقدما إلى تحيته . وكان الميدان محاطا بسرادقات منصوبة فيها فتيات من جميلات القرية يبعن سلات مليئة بالفاكهة المحتفل بها ، فاشترى الصديقان سلة منها وعادا إلى سيارتهما بعد ساعة قضياها فى لذة وحبور

عادت السيارة تسير بهما فى طريق ممهدة تشرف على سهول تقوم بينها الأشجار هنا وهناك وتظلها أحياناً صفوف من أشجار الصفصاف الباسقة ، وتكتنفها أحياناً تلال غير مرتفعة ينمو على جوانبها الأشجار . وكان النهار قد انتصف والشمس فى كبد السماء ترسل خيوطها الذهبية ، ولم تكن

فى السماء غير قطع من السحاب الأبيض تكاسلت فى بعض الأركان وكأنها تستريح من حر الظهيرة أو هى تنتظر ساعة الطعام .

وكان الصديقان قد شعرا بمثل هذه الحاجة ، أو على الأقل إلى أكل شئ مما فى السلة . وعلى حين فجأة بدا أمام أعينهما قصر عظيم من قصور القرون الوسطى تحيط به الأبراج وحوله خندق كبير يلوح كأنه بحيرة جافة صنع على الغالب ليكون القصر بمأمن من الغزاة والفاتحين . وكان لون القصر رماديا من القدم ، ولكنه اكتسى بحلة وردية من أشعة الشمس ، وأخذ منظر القصر العظيم بانتباه الشيخ حتى إنه لم يكد يفطن إلى أن السيارة وقفت على باب صغير يكاد لضآلته إلى جانب القصر العظيم لا يظهر للعين .

وتزل الراكبان ودخلا المكان ، فاذاهما فى مطعم أنشئ ليشرف من موضعه المختار على القصر وسارا توًّا إلى الشرفة حيث جلسا إلى مائدة وأمامهما القصر المنيف وهما يطلان على الخندق العميق . وعلم الشيخ من صديقه أنه قصر سان جوندلفو مسكن البابا فى مصيفه .

وكانا جائعين حقا بعد تلك النزهة الطويلة ، ووضعت أمامهما قنينة الشراب الأحمر القانى من نوع جيد من أنواع أنبذة القصور الرومانية . وجاءت صحفة الأسباجتى المطهية على طريقة نابولى والدخان يتصاعد منها ، وقد أعدت فى الحال ؛ وملأ صاحب السيارة كوبتين بالشراب ، وقال لصديقه :

— لنشرب نخبك ونخب رحلتك .

فأجاب الشيخ :

— بل لنشرب نخب ساكن هذا القصر ذى التاريخ المجيد وريث بطرس والقياصرة !

حسن محمود